نجـــار ونجار

للأستاذ أحمد أمين

استأجر دكانا أمام منزلنا الأسطى حسن النجار

وهو شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، مهزول الجسم ، أصفر الوجه ، ينتعل نعلا بالية ، ويلبس ثيابا رثة ، وعلى رأسه طربوش أسفله أسود ، وأعلاه أحمر ، قد دفعه الى الوراء ليظهر « قصته » من شعره ، فرّعها فروعا ورفعها الى السماء لتناطح السحاب

ينظر اليك بعين منتفخة كأنه قريب العهد — دائماً — بنوم طويل ثقيل ، ويمشى متطرحا كأن فى رأسه — دائماً — فضلة خُمَار ، وعلى وجهه غبرة كأن الماء لم يمسه أبداً ، أقوى شىء فيه لسانه فى السباب ، وصوته فى النزاع

ليس لفتح دكانه أو اغلاقه موعد ولا لعمله وراحته وقت محدد ، يحلو له أحياناً أن يغلقه فى الصباح و يفتحه فى الظهر اذا بدأ الناس يَقيلون ، وأحياناً يسره أن يتركه مغلقاً طول النهار ويفتحه ليلا حيث يبدأ الناس فى النوم ، فيضىء مصباحه ويخرج عدده وأدواته فى الشارع ، ويأخذ فى نجارته ما حلا له ذلك ، حيناً الى الفجر ، وحينا الى الصباح ، تحاول أن تصده عن ذلك وتنصحه فيظهر الطاعة ثم يستمر فى خطته ؛ وأحياناً تنقلب دكانه فى الليل حلبة الكميت ، يتنادمون ويتشاربون ، حتى اذا تمشت الخمر فى مفاصلهم ، ودبت فى عظامهم ، ذهبت بهم كل مذهب ، وأخذت منهم كل مأخذ . فتغنوا أحياناً ، فوقع الغناء فى نفوسهم أحسن موقع ، وصاحوا جميعا بصوت واحد : آه ! ممدودة ما طاوعتهم أنفاسهم — وأحياناً يعدلون عن الغناء الى تبادل النكات ، ويعقبون كل نكتة بضحكة عالية تسر نفوسهم ، وتخرق آذان جيرانهم

واذا فتح الدكان نهاراً فمعرض غريب ، لا لجودة المصنوعات ولا دقة المعروضات ، ولكن لأصحاب الحاجات قد أتوا يطالبون بانجاز أعمالهم ، والشكوى من تأخير طلباتهم ، ثم يصل الأمر فى أغلب الأحيان الى تدخل البوليس ، وأحياناً يكون ما هو أدهى وأمرّ ، اذ يكون قد سلّم اليه صاحب حاجة دولابه أو كرسيه لاصلاحه فلم يجد دولابه ولا كرسيه ، لأن الأسطى حسن اضطرته الحاجة الملحة فباعه وأضاع ثمنه

وهكذا أصبح شارعنا بحمد الله معرضا فى النهار للسباب والمشاكل والخصومات والبوليس ، ومنتدى جميلا ليلا لأهل السماح الملاح ، الى الصباح

وأخيراً عدت من عملى يوما فرأيت الزحام شديداً على دكان الأسطى حسن ، واذا جلبة وضوضاء ، وصياح يملأ الآذان ؛ واذا المنادى ينادى لبيع عدد النجارة وأدواتها :

منشار فى حالة جيدة !

عشرة قروش — أحد عشر — اثنا عشر

ألاوونا — الادو — ألاتريه

وهكذا حتى تم بيع كل ما فى الدكان وفاء لكرائها خمسة شهور تأخرت على الأسطى حسن

وكان شعورى إذ ذاك مزيجا من غبطة وألم ، وحزن وفرح ، فقد آلمتنى خاتمته ، وأفرحنى ما منيت به نفسى بعد ذلك من نوم هادئ سعيد

ودعوت ربى جاهداً ألا يرغب فى الدكان مستأجر بعدُ ، فان كان ولابد فكواء أو عطار ، لا نجار ولا بائع فراخ ولا مبيض نحاس ، وقصرت شكواى على الله بعد أن جربت البوليس فوجدته لا يأبه لهذه السفاسف ، وليس له من الزمن ما يلفته لهذه الصغائر

ولكن أبى القدر أن يستجيب دعوتى — وكأن الدكان وقف على سكنى النجارين — فقد سكنها هذه المرة أيضا نجار ، ولكنه من صنف آخر — هو نجار رومى ، لم أشعر بسكناه إلا بعد شهر ، لأنه لم يكن فى عمله شئ غير عادى ، فهو يفتح دكانه وقت العمل ، ويغلقها عند الغروب ، وينجر فتندمج أصوات دقاته ونجارته فى أصوات البائعين وحركات المارين وأصوات السيارات

دعوته يوما لاصلاح دولاب ، فاذا شاب يشترك مع الأسطى حسن فى سنه ، ويختلف عنه فى كل شىء آخر ، جميل الهندام وان

لم يكن ثمينه ، صفف شعره فى أناقة ولمعان بينما اعتنى الأسطى حسن « بقصته » فقط — عمل عمله فى هدوء واتقان ، وكأنه يحترم نفسه ويحترم عمله ، ويقدر نوع معيشته وما يلزمها ، فطلب ضعف ما كان يطلبه زميله فدفعته راضيا

له فى جوارنا ستة أشهر أو تزيد لم أسمع صوته ، ولم أسمع شاكياً من تأخر موعد أو تصرف سيئ . ولم يقلق راحتى كما أقلقها مَن كان قبله ، فهو وإن لم يكن كواء أو عطاراً كالذى رجوت فليس شراً منهما ، وتبين بعدُ أن الأمر ليس نوع الصناعة ، وإنما هو نوع الصانع

* * *

ونزلت بيتاً فى ضاحية من ضواحى الاسكندرية ، فرأيت (ڤيلا) جميلة على شاطئ البحر ، لا يسكن مثلها — عادة — إلا مَن ورمت جيوبهم ، وانتفخت محافظهم ، راديو ، وبيانو ، وما شئت من أسباب النعيم ورفاهة العيش ؛ ولكن لفت نظرى رجل يلبس قباء ، ويحزم وسطه بحزام ، وعليه جاكتة بسيطة نظيفة ، قد أرخى لحيته ، ودفع طربوشه الى وراء ، يحمل أقمشة على كتفه يكاد ينوء بحملها ، وهو من الصنف اليهودى الذى نراه يجول فى الشارع كل يوم يبيع (الدمور) و (الزفير) و (الباتستا) . حيرنى أمر هذه (الڤيلا) بجمالها ونظافتها ، وأمر هذا الرجل ، يخرج صباحاً يحمل سلعته على كتفه وقد سمنت ، ويعود مساء وسلعته على كتفه وقد هزلت ؛ أمستأجر هذا الرجل حجرة صغيرة فى البيت ، أم قريب فقير لأصحابه عطفوا عليه وآووه واحتملوا منه أن يعيش بينهم وينزل فى مسكنهم ؟ — وفى الحق كان هذا لغزاً شغلنى شرحه ، وأعيانى حله ؛ ثم هدتنى المصادفة البحتة الى اكتشاف الأمر وافتضاح السر : هو ربُّ البيت ! وهو عميد الأسرة ، وليس فيها إلا زوجه وأولاده ، ولكن كلهم يعمل ، وكلهم يكسب : هذه خياطة ، وإحدى بناتها معلمة بيانو ، وهذا ابنه كهربائى ، وهذا الآخر يعمل فى مصلحة التلغراف ، وكل كاسب يعطى ما كسب لأبيه ، ويجمعون من ذلك ما يجمعه موظف وسط أو فوق الوسط ، ثم هم جميعاً يعلمون كيف يعيشون ، وكيف ينعمون بالعيش بأقل مصرف ، ويعلمون ما ينفقون وما يدخرون

قارنت بين هذا الرجل ورجل مصرى آخر كان يجول أمام بيتنا أيضاً ، يحمل سلعة كسلعة اليهودى ، وينادى على (حرير المحلة) ، وتصورته وبؤسه ، وتصورت أسرته وبؤسها ، وكيف يتحد العملان ، وتتباين المعيشتان

* * *

ثم نسمع الشكوى الحارة من العمال العاطلين ، والمتعلمين العاطلين ، ونسمع من يرجع العلة الى تفشى الأمية حيناً ، وإلى نوع الدراسة حينا ، والى غير ذلك من أسباب ، وليس فى نظرى سبب أهم من نقص الأخلاق ؛ ولست أعنى أخلاق الكتب ، ولكن أعنى أخلاق العمل ، من معرفة طرق الكسب ، وإجادة العمل ، وحسن العرض ، وعدم الأنفة من مزاولة الحرفة مهما حقرت ، وضبط الدخل والخرج ، وفوق ذلك كله العلم بفن الحياة .

أحمد أمين

القبلة الأولى . . !

هى البريد الذى حمل عنى رسالة حبك ، والاخلاص لك ، فأداها فى أمانة وطهر . .

هى الوحى الذى هبط بالألفة ، وارتفع بالكلفة . .

هى الرسول الذى بلّغك ذوب عاطفتى فى صدق وفطانة . .

هى طابع الوفاء ختمتُ به على ثغرك الزاهى الجميل . .

هى اعتراف بالمحبة أبرقتُ به الى قلبك من أخصر طريق . .

هى تذكار الصفاء سجّلتُه على لطف شفتيك . .

هى برهان الولاء استخلصتُه من سحر عينيك . .

هى التصريح الصامت لما يكنه القلب من لوعة وهيام . .

هى الضغطة الرفيقة التى تذكى فى النفس الحب والغرام . .

هى السلسبيل الصافى الذى يندّى لهاة المدنف الولهان . .

هى النسمة الوادعة اللينة التى تطيف بالنفوس فتنتعش . .

هى الأرج الذاكى الذى تمتلىء به الصدور فتنشرح . .

هى الرحيق المختوم ، والوردة النضرة ، والزهرة المتفتحة . .

هى الجمال كله . يعلن عن نفسه فى خفوت وهمس يزيدانه روعة ورهبة . ويعلآنه إجلالا وهيبة . . ؟

كمال الدين حسين
مدرس